القصص

قصة مصرية

صراع مع الشيطان !

للأستاذ دريني خشبه

« الحوار في الأصل باللهجة المصرية ... »

انبسطت حقول الأرز حول القرية الساكنة الشاحبة ، وهدأ الليل الفضي إلا من ضفادع تنق ، ونسمة ترف فتحرك أغصان (الجميزة) الكبيرة التي ترسل فروعها فوق شاطئ النيل من جهة ، وفوق (الدوّار) الواسع في شرق القرية من جهة أخرى ؛ وسفر البدر الجميل الساحر ، ففضض عباب النيل ، واختلط لجينه بمائه النجاشي ، وتدفق فوق (اللسان) الحجري الأبيض الذي أقامه ليقل من غربه فأحدث خريراً موسيقياً بديعاً

وجلس (حماده) بن العمدة في متعزل عند ضفة النهر مما يلي الماء ينتظر فاطمة ... الفلاحة الصغيرة الجميلة ، التي رآها ابن العمدة حاسرة عن ساقيها وهي تنقي الأرز مع الفلاحات الأخريات ، فجن بها جنوناً ، وافتتن بها افتتانا

لقد رشقت قلبه بنظرة ماكرة حين رأته يكاد يأكلها بعينيه الجائعتين ، وحين أحسّت أنها حلت من فؤاده منزلة لا تعدلها منزلة فتاة أخرى ، حتى ولا زوجته الثنية التي بنى بها منذ شهر وبعض شهر ، فكان لعرسها صدى أي صدى في كل القرى المجاورة ، لا سيما وقد غنى فيه المطرب المشهور الشيخ عبد الآله .. والعياذ بالله ...

ولسيقان الفلاحات جمالها الرائع ، وهي دائماً محاطة بظل من الفتنة ، يزيده الخلخال النائم على العقبين ، والملاءة السوداء القصيرة ، رونقاً ورواء . وكان لفاطمة جيد بارز وقوام ممشوق ، وكان لها عنق طويل أبيض ، يزينه عقد كبير من الكارم الأصفر ، ينتهي بحلية من النحاس المصفح بالذهب تستقر على الصدر ، عند انفراج النديين ، فتزيد اهتزازات النهد خفقاناً في قلب حماده ... حماده المسكين ... الذي ربط حياته أبوه بحياة هذه الزوجة الثنية التي لم يحبها ، والتي ألقاها أبوه على كاهله حملا ثقيلا من الهم والشقاء ... والذهب !! والذهب لا يصلح علاجا للهم والشقاء مهما كان كثيرا طائلا

لقد كان حماده فتى ذكيا من فتيان الأزهر ، فقطعه أبوه عن العلم ليزوجه هذه الزيجة الثنية قبل أن تفلت من يده ، لأن أبناء العمد في القرى المجاورة كانوا قد بدأوا يخطبونها إلى والدها ، وقد غادر حماده الأزهر وفي قلبه حسرة ، ولكنه خضع لمشيئة والده بعد أن خدعه بالأماني والآمال ، وبعد أن زين له مستقبلاً مليئاً بالحور العين والدعة ، وبعد أن بغض اليه مستقبل التحصيل الأزهري الشاق بتكرار هذه العبارة المنكرة : « الأزهر ما مستقبله ؟ علومه ما قيمتها ؟ أتريد أن تفقد بصرك وصحتك لتكون مأذوناً شرعياً آخر الأمر مثل الشيخ عرفه ؟ »

وتزوج حماده من نظيرة ، فلما كانت ليلة العرس ، ودخل إلى عروسه ، دارت به الأرض ، وشعر كأن هواء الغرفة يخنقه ، وانطفأت في عينيه الشموع الكثيرة الموقدة في (الصواني) النحاسية تحملها القرويات الصغيرات ، وخيل اليه كأن جهنم بكل ما فيها من سعير تزفر من لهب هذه الشموع فتكاد تحرقه

لقد نظر الى عروسه فطاشت أحلامه ؛ وذهبت أمانيه في الجمال الذي كان ينشده أباديد . . . حماده ، الذي كان يعبد الله في الجمال يبتليه أبوه بهذه المرأة التي فقدت نصف أذنها اليمنى ، وأتلف الجدري أنفها ، وتعا لها في كل يد إصبع سادس ما ينفك يرقص كأنه الجُعْل الصغير في عنق الدابة ، ثم هي قصيرة مكلثمة

شائهة ، وقد زادتها الأساور والقلائد والقرط والخواتم وأرطال الذهب قبحاً على قبحها

وتذرع حمادة بالصبر ، ولم يشأ أن يجرح عزة هذه العروس التاعسة التي ليس ذنبها ألا تكون جميلة ، فهي لم تخلق من نفسها شيئاً ، بل هو قد رحمها وأشفق عليها رثاء لها ؛ وصرف أهله وأهلها ، وغلّق الباب ، وخلا اليها ، ثم راح يكلمها كلام الذاهل عن نفسه ، المستسلم لقضاء الله . . . ولكنها لم ترد عليه ، بل تركت دمعة غليظة تنحدر على خدها فجأة ، ثم استخرطت بعد ذلك في البكاء !

— « ما الذي يبكيك يا . . . »

— « لا شيء ! فقط ، كنت ولا زلت أعتقد أنني لم أكن أصلح لك كزوجة ، ولكنهم أرغموني كما أرغموك يا حمادة ، فليس هذا الذنب ذنبي ! »

— « ولكنك مخطئة ، فأنت امرأة صالحة وغنية ! »

— « وهذا هو موضع أسَايَ وسبب بلواي . . . إسمع يا حمادة ، لك مطلق الحرية في أن تُسرّحني من الغد وأن تكون حراً بعد ذلك ، وسأرد لك صداقك ، بل سأرده مضاعفاً إن شئت . فان أردت أن تستبقيني لديك فسأعيش معك عذراء الى الأبد ، ولن أنغص عليك بخلق الشائه متاع قلبك ونعيم نفسك ولذة شبابك ونضرة صباك . فهذه أشياء لك أن تنعم بها ، ومن الظلم أن أفرض عليك هذا القبح الذي رزأتني به المقادير ، فأقف به بينك وبين لذات الحياة وهناءاتها . . . أرسلني أشكر لك ، أو استبقني أحمدك . فان كانت الأولى تكن قد خلصت من خطأ أوقعك فيه غيرك ، ولم تتكلف في سبيل الخلاص منه قليلاً ولا كثيراً ؛ وإن تكن الثانية ، فثق أنني سأعيش في كنفك كما تعيش الراهبة في دير ساكن هادئ على هامش صحراء ، يقنعها أن قد انقطعت عن بهارج الحياة وزخارفها وآمنت ببطلان لذاتها . . . آه ! يا إلهي ! لم لا تتخذ نحن المسلمين مثل هذه الديور ؟ ! . . .

— « كفى يا نظيرة كفى ! بل تعيشين معي على أحسن ما تعيش فتاة تفرح برجلها ! . . .

* * *

وعاشت نظيرة في كنفه ، عذراء كما عاهدته ، وكان هو يحنو عليها ويعطف كل العطف ، وكان يسامرها ويلاطفها ويهش لها ويبش ، حتى كلفه أبوه بمراقبة الفلاحات إذ ينقين الأرز من الحشائش الغريبة وسائر الطفيليات ، فرأى فاطمة . . . فاطمة الشابة الجميلة التي تتأرج كالزهر بشذاها وعَرْفها ، وتتبرج كالدنيا بمفاتنها وظرفها . . . لقد بسمت له عن فم رقيق ، وغمزت قلبه بعين خبيثة ماكرة ففجّرت فيه أحاسيسه المكبوتة ، وأطلقت عواطفه الحبيسة ، وأحيت في صميمه مطالب الشباب فثارت كالبركان ، وصعد الدم الحار يغلي في رأسه ، وتدفقت في أعصابه قوى هائلة من الطبيعة البشرية بنَّضت إليه هذا الزهد المصطنع الذي فرضته عليه نظيرة ، وقبحت إليه تلك الرهبانية التي عرفها وهو في ميعة الصبى وشرخ الشباب منذ الليلة الأولى التي رأى فيها زوجته الشائهة المسكينة

وكان يرسل من يشترى له بلحاً أحمر يأكله بعد الغداء ، وكان يوزع على الفلاحات بيده من ذلك البلح إذا فرغن من غدائهن ؛ وكان نصيب فاطمة من هذا البلح الأحمر كبيراً منتقى ، أثار في قلوب أترابها غيرة شديدة وجعلهن يهمسن بكلام كثير

ومرت الأيام . . . وتأكد الحب بين حمادة وفاطمة ، وإنه لينتظرها الليلة في هذا المنعزل الفريد عند ضفة النيل مما يلي الماء ، قريباً من تلك الجميزة الكبيرة الوارفة ، وإنها لتتأخر عن موعدها فيقلق حمادة ويضطرب ، ويسمج في عينيه كل شيء من الطبيعة الساحرة التي حوله ، حتى بدرها الذي كان للحظة قصيرة يتلو عليه مزامير الحب ، يخيل اليه أنه مظلم قاتم ، أو أنه جذوة من الشك السادر الحزين تجوب أقطار السموات

« لم لم تأت يا ترى ؟ آه اللعينة ! أخشى أن يكون في الطريق الى قلبها فتى سواي . . . سأعرف . . . لابد . . . لابد أن أعرف . . . سأسألها الليلة ، لابد أن ألقاها مهما كانت ظروفها ، لن تستطيع أن تنكر ، ماذا تقول ؟ هيه ! »

وصعد إلى الجميزة لأنه لم يحتمل مرور الزمن وهو يترقب وينتظر ، وجمع قليلا من الجميز الفلكي الأحمر الكبير ، وهبط ليلقي فاطمة تنتظره ، فقذف بالثمر الناضج على العشب ، وفتح ذراعيه وضم الى صدره فاطمة ، واحتملها كاللعبة ، ويمم شطر

المنزل المادي القريب من الماء ... ثم جلسا يتناجيان ...

— « لماذا أبطأتِ عليّ يا بطة ؟ »

— « لاشيء ، غير أنني كان يخيل اليّ أن الطريق كلها عيون ترقب جميع حركاتي ، وكنت على غير عادتي أشعر بقلبي يخفق خفقاناً شديداً ... حمادة أليس قلبك يخفق مثل قلبي ؟ »

— « يخفق ؟ يخفق فقط ؟ إنه كاد ينخلع هذه الليلة يا طمطم لأنك أبطأت كثيراً ... »

— « حمادة ، أنا خائفة ... »

— « خائفة ؟ من ماذا ياحلوة ؟ هل هنا عفاريت ؟ »

— « لا ، ليس من العفاريت ، فالليلة مقمرة ... الحمد لله ... »

— « إذن مم تخافين ؟ هل تعقبك أحد إلى هنا ؟ »

— « لا ... لا أظن ، ولكن ... »

— « فاطمة ... كفى ! يجب ألا تفكري في شيء مادمت معي ... تعالي يا فاطمة ، هاتي فمك الحرى الجميل ، الله ! ما أشهاه يا فاطمة ! قبلة ثانية ، لا والله ، لا بد ، لا بد ، فاطمة ، أنت ترفضين ؟ آه ! يا قلبي ! »

— « حمادة ! أنا خائفة قلت لك ! »

— « خائفة من أي شيء يا طمطم ؟ »

— « من ... من ... منك ... أنا خائفة منك ياحمادة ؟! »

— « مني ؟ مني أنا ؟ أنت خائفة مني ؟ »

— « نعم أنا خائفة منك ... خائفة جداً ! »

— « لماذا ؟ هل أنا عفريت ؟ القمر طالع والحمد لله ؟... »

— « حرام عليك ياحمادة ! »

— « حرام على ماذا ؟ »

— « شيء ... فقط ... زوجتك نظيرة ... إنها لو علمت تقتلني ! »

— « امرأتي نظيرة ! العياذ بالله ؟ نظيرة ليست امرأتي يا فاطمة ! »

— « ليست امرأتك ؟ امرأة من إذن ؟ »

— « أجل ، نظيرة ليست امرأتي ! إنها فريسة أبي »

— « فريسة أبيك كيف يا حمادة ! »

— « فريسة أبي ، لأنه تجاهل قلبي وشبابي حين اشتراها لي »

— « اشتراها لك ؟ وهل المرائس تشترى ! ماذا تقول يا حمادة ؟ »

— « اشتراها ، أجل اشتراها ، اشتراها لأنها تملك خمسين فداناً ومنزلين وعندها نقود كثيرة ، ولكنها ، كامرأة ... لا تسوى منك قلامة ظفر يا فاطمة ! »

— « له ؟ أليست جميلة ؟ »

— « جميلة ؟ كلا ! انها شوهاء ! أكل الجدري نصف أنفها وذهب الجزار بنصف أذنها ، ونبت النصفان ، نصف الأنف ونصف الأذن ، في يديها ، فكانا في كلٍّ إصبعاً سادساً ؟ ... »

— « ولكنك تخونها الآن يا حمادة ؟ أليس كذلك ؟ »

— « أخونها ، لقد صرحت لي ليلة الدخلة أنها لن تقف في سبيل لذاتي ! »

— « ورضيت أن تعاشرها على هذا الشرط ؟ »

— « ... ؟ ... »

— « وأنا أرفض أن أكون مطية للذتك ! هذا كثير ! دعني ! لا بد أن أعود أدراجي ! »

— « إلى أين ؟ »

— « ليس هذا شأنك ! »

— « آه ! اعترفي إذن ! الى عشيقك الثاني ! الذي أخرك هذه الليلة ! »

— « حمادة ؟ ماذا تقول ؟ أنت جبان ! »

— « جبان ؟ لا ... أنا لست جباناً ... أذلك تخافين مني ؟ ولكن لا ، لن يتمتع بك أحد غيري ، أنت لي وحدي ، أفهمتِ ؟ أنتِ لي وحدي ! فاطمة ! انزعي هذا الثوب ... وذاك النصيف ! »

— « يا حمادة عيب ! »

— « عيب ؟ لا ، ليس في ذلك عيب مطلقاً ! قد عرفتك الليلة فقط ، ولا بد أن أنالك رضيت أو لم ترضي ! ستكونين جميلة جداً وأنت عارية ! »

— « حمادة ! ان لم ترجع (فسأصوّت)

— « صوّتي ماشئت ! لا تفضحيني إلا نفسك ! أنا رجل على كل حال ، ماذا يهمني اذا اجتمع الناس ؟ ...

وانقض عليها المسكين ينزع عنها ثيابها ثوباً ثوباً . وما استعصى عليه منها جبذه فمزقه ، حتى وقفت أمامه فاطمة دمية من الرمر الناصع ... تمثالاً ! تمثالاً فاتناً خلاباً ... ولكنه لا يتحرك ! لقد ذهلت فاطمة عن نفسها فلم تدر ماذا تصنع ؟ أتصوّت كما أندرته ؟ ولكنه قال لها إنها إن فعلت فلا تفضح إلا نفسها ... جبنت فاطمة فلم تصوت إذن ... ووقفت مشدوهة حائرة ، وصب القمر على بدنها الجميل المذعور أضواءه الفضية فزادها فتنة ؛ وهبت نسمات عليلة فداعبت شعرها الأسود فانتثرت على جيدها وظهرها وحول عنقها ... وجاء دور الشيطان ... نوبة إبليس الأكبر ! فراح يصقل فخذيها ويلون خديها ويثقل ردفها وينفخ ثدييها ... وانطلق يوسوس فى قلب حمادة « هلم ! اهجم عليها ! لماذا تنتظر ! هاهى ذى ! إنها لك الساعة واذا فارقتك فلن تراها بعد ! أنت شاب ، وللشباب مآربه ! زوجتك الشائهة ! لا تخش شيئا ! اقطف الثمرة قبل أن يلتقطها عشيق غيرك ! الجدرى ! فاطمة جميلة ساحرة ؟ الأصبع السادس ! هاك متاع الدنيا ! ... »

وأزله الشيطان فانقض على الفتاة البائسة ... وطرحها على (الدريس) اليابس وأعواد البردى المتداعى ... ووقف برهة يملأ ناظريه الفاسقين من جمالها المظلوم ... وقبل أن يتقدم فيخطو الخطوة الأخيرة ، وحين أيقنت فاطمة أنه موشك أن يعتدى عليها ... اغرورقت عيناها بدموع غليظة ، وقالت له :

— « حماده ! والقرآن يا حماده ! القرآن الذى حفظته فى الأزهر ؟ نسيته ؟ نسيته يا حماده ... بهذه السرعة ؟ »

— « القرآن ؟ القرآن ! ! هه ! ... »

وجمد الفتى فى مكانه لحظة ... ثم ولى الفتاة ظهره ، ونظر الى السماء وقال :

— « ربى ! غفرانك اللهم ... فاطمة ! »

— « ... ؟ ...

— « انهضى فالبسى ثيابك ! »

* * *

ونهضت فاطمة وهى لا تصدق ، فارتدت ملابسها ، المزق منها وغير المزق ، ثم قالت لحمادة بصوت خاشع متهدج :

— « حمادة ! أنت ... مالك يا حمادة »

ولكن الفتى ازورّ عنها وقال :

— « لا شىء يا فاطمة ... عودى أدراجك الى منزل أبيك ، وسأحرسك من بعيد ... »

وانطلقت الفتاة فى الطريق القفر الموحش ، وانطلق فى إثرها حمادة ، وهو لا يكاد ينظر اليها ...

* * *

— « نظيرة ! هل يحزنك أن أتزوج ؟ »

— « يحزننى ؟ بل يسرنى أن تمتع شبابك كما يحلو لك ! »

— « إذن فقد عقدت على فتاة فلاحة ... فقيرة فى غاية الفقر وستكون خادمة لك إذا شئت !

— « من ؟ من هى يا حمادة ؟ من هى بالله عليك ! »

— « فاطمة بنت عم عبد القادر العتال ! »

— « مبارك ... مبارك يا حماده

* * *

ولم تحتمل نظيرة الموسرة هذه الرهبانية التى فرضتها على نفسها فى منزل العمدة الذى خدع ابنه فرجت حمادة فى طلاقها ... وذهبت بكل ما عليها من ذهب الى منزلها الرحب الفسيح فى إحدى القرى المجاورة للمنصورة !

دمنهور

محمد عبد الله عنان

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

« الطبعة الرابعة »

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً